الفكر الاجتماعي عند العرب

صاعد الأندلسي (٤٢٠هـ/١٠٢٩م - ٤٦٢هـ/١٠٧٠م)

د. عبدالله حسن العبادي

تجاهل الغربيين للفكر الشرقي :

عندما يبدأ الكثير من الكتّاب والأكاديميين الغربيين ولاسيما المهتمين بالدراسات الفلسفية والاجتماعية بالكتابة عن الفكر الاجتماعي وتطوره، فإنهم غالبًا ما يبدأون بدراسة الفلسفة اليونانية القديمة، لأنهم يعدونها أول صورة منظمة ودقيقة وصلت إليهم عن الفكر الإنساني المنظم في المسائل الاجتماعية. وقد دأب كثير من المفكرين الاجتماعيين غير الغربيين على تبنّي وجهة النظر هذه بالرغم من خلوها من أسانيد تاريخية تؤكد صحتها. ومن الطبيعي أن يسهم مثل هذا الاتجاه في التقليل من أهمية الفلسفة

والدراسات الاجتماعية الشرقية والتي كانت سابقة – دون شك – في الظهور على الفلسفة اليونانية . إن هدف المفكرين الغربيين واضح من محاولاتهم المتكررة في تجاهل الأفكار الاجتماعية عند الشرقيين، وعدم الإشارة إليها . فهم بذلك يريدون التقليل من أهمية هذه الأفكار الشرقية عند دراسة أصول المدنيات وأنواع الحضارات الإنسانية والدور الذي أسهمت به هذه الأفكار في تطور الفكر الإنساني.

أما هدف غير الغربيين من تجاهلهم للدراسات الاجتماعية في الشرق القديم فيتجلى في اتباع الرأي القائل إن كل دراسة إنسانية علمية منظمة في تاريخ الفكر الإنساني، يجب أن تكون صادرة من الغرب. ولهذا السبب فنحن نرى معظمهم عندما يتعرضون للفكر الشرقي يمرون عليه مر الكرام، لأنه فكر لايستحق منهم وقفة تأملية دقيقة. ولافحصاً تاريخياً شاملاً. فهو يخلو عادة من الآراء والأفكار العلمية المنظمة. وإذا وجد في التفكير الشرقي القديم بعض اللمحات فإنها –حتماً ودون شك – لاترقى إلى مستوى النظريات العامة الموجودة في الفكر الغربي. وقد نجد أحياناً بعض المتطرفين الذين يصفون الفكر الشرقي القديم بالضحالة والعقم وبأنه لاجدوى من دراسته. ونذكر رأياً لعالم الاجتماع الأمريكي (هاري المربارنز) في كتابه الضخم «مقدمة في تاريخ علم الاجتماع» يقول فيه: إن أية دراسات منظمة عن الظواهر الاجتماعية لم تبدأ إلا عند اليونان، ذلك أن الكتّاب الشرقيين القدامى قد منعتهم ظروف حياتهم وأوضاع بيئتهم الاجتماعية، من أن يسهموا في إعطاء أفكار عامة وجريئة تناقش أصل النظم الاجتماعية وطبيعة نشأتها. وسبب ذلك – في نظره – راجع إلى أن النظام الاقتصادي السائد، والنظام الطبقي المقفل، والخرافات السائدة في الوسط الاجتماعي، والنظام الديني الجامد، كل ذلك أدى إلى ثبات النظم الاجتماعية وقدسيتها. وذلك مما جعل المفكرين الشرقيين لا يستطيعون الجرأة في التفكير على وضع بعض النظريات

الواسعة والمفصلة، والدراسات العلمية المنظمة عن أصل هذه النظم الاجتماعية، وكيف نشأت؟؛ أو عن الطرق والوسائل التي يمكن أن تسهم في تحسينها وتطورها. بما يخدم المجتمعات الإنسانية(١). وهذا الرأي بالرغم مما يحمله في ثنايا سطوره من بعض جوانب الصحة إلا أن جمود بعض النظم الاجتماعية وقدسيتها - وهو في الواقع جمود نسبي - ظاهرة لاتقتصر على مجتمعات الشرق القديم وحدها. فهي موجودة أيضًا وواضحة في المجتمعات الغربية القديمة. وفي مجتمعات العصور الوسطى بل وحتى في المجتمعات الغربية الحديثة وحتى القرن السادس عشر. فكثير من المجتمعات الأوربية لم تكن عندها فكرة عن مبدأ التطور واختلاف العادات والنظم الاجتماعية باختلاف الأزمنة والمجتمعات. وهناك أسباب عديدة تكمن خلف تجاهل الأوربيين والغربيين بشكل عام للفكر الشرقي القديم نذكر أهمها فيما يلي:

١ - يجهل كثير من المفكرين الغربيين اللغات التي كانت سائدة في المجتمعات الشرقية القديمة، بينما نجدهم يعرفون اللغة اليونانية القديمة واللاتينية، مما يسهل عليهم دراسة النظم اليونانية والرومانية دراسة مفصلة.

٢ - ونتيجة للسبب السابق، فإن العلماء الغربيين يفهمون التراث اللاتيني واليوناني فهمًا كاملاً نظرًا لمعرفتهم باللغتين معرفة جيدة، ونظرًا لتعلقه بالتراث الغربي الاجتماعي والثقافي وارتباطاته الشديدة من ناحية أخرى. في حين أن هؤلاء العلماء يجهلون التراث الشرقي القديم لعدم وجود روابط ثقافية واجتماعية مشتركة بينهم وبينه.

٣ - يدّعي بعض العلماء الغربيين أن الفكر الشرقي فقير وذلك راجع إلى نقص في عقلية الشرقيين وتخلفها عن الغربيين فعقلية الشرقيين كما يزعمون لاتعرف النظريات التحليلية التي يمتاز بها الفكر الغربي. غير أن مثل هذه الأسباب لايمكنها أن تصمد أمام نتائج الدراسات النفسية والفسيولوجية

والاجتماعية الحديثة التي أثبتت بما لايدع مجالاً للشك بأنه لاتوجد فروق في العقلية بين جنس وآخر، وأن الفروق الموجودة بين الأجناس البشرية إنما ترجع إلى اختلاف الثقافات بين هذه الأجناس، ولكنها لاترجع إلى التكوين الجسمي والعقلي ولا أيضًا إلى نقص في التفكير(٢).

الحملة ضد العرب والمسلمين :

ذهب بعض الغربيين إلى القول إن العرب بطبيعتهم لايقدرون على ابتكار جديد في مجال الفكر العلمي والفلسفي على حد سواء، وأن ماضمه تراثهم من أشكال الفكر الأصيل والمتميز دخيل عليهم. وأنهم فوق هذا لم يحسنوا فهم ما نقلوا من ذلك التراث ولم يستوعبوا أسراره، بل هم شوهوه بشروحهم وأتلفوا حقائقه بتعليقاتهم.

وانتقص الحضارة الإسلامية كلها -ومنها العربية - كثير من المفكرين الغربيين من أمثال «سيريل الجود» و«بولس دي لاجار» و«هيجل» و«جولد تسيهر» و«ماكدونالد» وغيرهم. ذلك أنهم حسب ما يقول «روزنتال» قد صوروا التاريخ السياسي سلسلة مملة من الحكام الطغاة، والتاريخ الحضاري تكرارًا مملاً للأفكار، والتاريخ الديني بقايا متحجرة متجمدة تتناقلها الأجيال بعضها عن بعض في حذر. وهكذا بدا تأخر البحث الفكري والعلمي عند المسلمين عامة من الأمور المسلّم بها.

وتعرضت الفلسفة العربية في أزهى عصورها لحملة ظالمة، غير صحيحة دفع إليها تعصب جنسي وديني شاع في أوربا خلال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بوجه خاص. وبدت آثاره واضحة حتى في مجالات البحث الفكري والعلمي. وكان في مقدمة أصحاب الحملة العنصرية «ارنست رينان» و«كرستيان لاسن» و«لبون جوتبيه»(٣) وخلاصة هذه الحملة كما بدت في أقوال رينان، أن عقلية الساميين - والعرب منهم - عقلية فصل ومباعدة، لاجمع

وتأليف، وأنها تدرك الجزئيات في غير تناسق. . وبالتالي فإن العرب بفطرتهم لايقدرون على استخلاص القضايا الأساسية والقوانين العامة، ومن هنا افتقد تراثهم الفلسفي والعلمي عنصر الأصالة والابتكار، ثم امتدح عقلية الآرايين(٤). وقال المستشرق الألماني «جيوم ثنمان» إن العرب بطبيعتهم ميّالون إلى التأثر بالأوهام، وأن أهل السنة يقفون عند ظاهر النص، ولا يتجاوزونه إلى ما وراءه من معان وأسرار، وبهذا عاقوا انطلاق الفكر(٥). وغير هؤلاء كثيرون ممن شككوا في أصالة الفكر العربي.

ولكن ما المقصود بالعلماء العرب؟؛ أنهم كل من أسهم في تقدم العلم والفكر ممن كتبوا بالعربية من أهل العصور الوسطى، وعاشوا في بلاد عربية أو تخضع لحكم عربي، يجمعهم تراث واحد، ويربطهم مصير مشترك. ولعل هذا المدلول يأخذ به كثير من المفكرين الغربيين، الذين سوف نورد أمثلة لآراء بعضهم.

فالمستشرق الروسي «بارتولد» عندما يتحدث عن حضارة الإسلام، فإنه يوحّد بينها وبين الحضارة العربية وحضارة الشرق في عهد العصور الوسطى، ويقول: إن العرب لم ينفردوا بابتكار هذه الحضارة، وإنما شاركهم فيها أهل الشرق الأدنى وقسم من أفريقيا عاشوا أمدًا طويلاً بعيدين عن حضارة أوربا، فقد آخى بينهم الإسلام ووحدت بينهم اللغة العربية وهي لغة العلم في تلك العصور(٦).

ويقول المستشرق الايطالي «نللينو» في تحديد مفهوم العرب: إن اللفظ كان يطلق حتى أوائل الإسلام على الذين استوطنوا شبه جزيرة العرب، أما بعد القرن الأول فإن اللفظ يتخذ معنى آخر، أطلقه الباحثون على جميع الشعوب التي تقيم في الأمم الإسلامية وتستخدم اللغة العربية في أكثر مؤلفاتهم العلمية(٧).

كما أن العالم الايطالي المهتم بتاريخ العلوم عند العرب «ألدوميلي» يطلق لفظ عربي على مفهوم اصطلاحي واسع، فيدخل في مدلول العلم العربي كل إنتاج علمي ازدهر في العصور الوسطى. وخاصة بين القرن الثاني والثالث عشر للميلاد – في إمبراطورية الخلفاء العربية – بصرف النظر عن اللغة التي كتب بها

العلماء – وهي في العادة اللغة العربية – ولهذا نجده يطلق اللفظ على كل من خضع للتأثير المباشر أو غير المباشر للبيئة التي أوجدها الفتح الإسلامي(٨).

وأخيرًا نشير إلى ما قاله «جوستاف لوبون» في كتابه (حضارة العرب) إن البلاد التي ينتمي إليها العلماء الذين قيل إنهم ليسوا من أصل عربي، قد دانت لسلطان العرب، وجرى الدم العربي في عروق أهله. وفكر علماؤها في ظل الدولة العربية ورعاية حكامها. وإنه إذا جاز لأحد أن يساوره الشك في رد مؤلفاتهم إلى الروح العربية، جاز له أن يشك في نسبة المؤلفات التي خلفها العلماء الفرنسيون إلى فرنسا، بحجة أنهم ينحدرون إلى شعوب غير فرنسية –وإن شكلت الشعب الفرنسي – كالنورمان والسليتين والاكيتاتين ومن إليهم، ومسايرة لهذا الرأي يجوز أن نستبعد من تراث الفكر الأمريكي أكثر المؤلفات العلمية في شتى مجالاتها بحجة أن أهلها ينحدرون من أصل غير أمريكي كما نستبعد من تراث الرومان أكثر مؤلفاتهم لأن واضعيها من اليونان.. إن تاريخ الفكر لايعرف حضارة كان كل بناتها من أبنائها الخلص(٩).

حياة صاعد ونشأته:

هو الفقيه، العالم، المؤرخ، والقاضي، أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبدالرحمن بن محمد بن صاعد التغلبي، والمعروف بصاعد الأندلس أو القاضي صاعد يرجع نسبه إلى قبيلة تغلب وقد جاءت إلى الأندلس عند الفتح الإسلامي لها كغيرها من قبائل الجزيرة العربية، وكان جده عبدالرحمن بن محمد بن صاعد بن وثيق، سافر للمشرق وبعدها تولى قضاء شذونة (وهي مدينة أندلسية)، ثم استعفى لينصرف للعلم ويتفرغ له، وكان والده ذا مركز مرموق في قرطبة(١٠).

ولد صاعد في المرية سنة ٤٢٠هـ، بدأ دراسته في قرطبة وأكملها في طليطلة عاصمة بني ذي النون آنذاك (من ملوك الطوائف بالأندلس)، والمصادر لاتبين لنا كثيرًا من طفولته. وإنما نعرف من كتابه (طبقات الأمم) بأنه طاف بلاد

الأندلس في شبابه الباكر طلبًا للعلم، ويبدو أنه كان تلميذًا لابن حزم، ويخبرنا عن ذلك صاعد نفسه في كتابه المذكور عن بعض المراسلات التي كانت تجرى بينه وبين ابن حزم(١١).

درس صاعد أيضًا على أبي محمد القاسم أبي الفتح بن محمد بن يوسف، الذي كان متفوقًا في علوم اللسان والقرآن والفقه. ويظهر لنا من كتابه طبقات الأمم بأنه ذهب إلى طليطلة سنة ٤٣٨هـ ليدرس العلوم والفقه والأدب(١٢). وقد كانت طليطلة في أيام يحيى بن إسماعيل الظافر - والذي أسس والده دولة بني ذي النون في الأندلس - وقد ازدهرت طليطلة في عهد يحيى وأصبحت مركزًا مشعًا للفكر والفن والأدب وأخذت في هذه المجالات تضاهي قرطبة وأشبيلية.

وفي طليطلة تتلمذ على يد هشام بن أحمد الكناني المعروف بالوقشي. وقد وصفه صاعد بأنه من أعلم الناس بالنحو واللغة ومعاني الأشعار وعلم العروض وصناعة البلاغة متحققًا بعلم الحساب والهندسة(١٣).

كما تتلمذ على يد أبي إسحق إبراهيم بن إدريس التجيبي في الرياضيات وعلم الرصد(١٤) وقد تكون هناك بعض التأثيرات الأخرى على حياة صاعد، فمن خلال قراءة الفصل الأخير من كتابه طبقات الأمم وعند حديثه عن العبرانيين مثلاً بأنه كان على علاقة مع بعض علمائهم في سرقسطة وطليطلة. ولكننا لانستطيع التأكد بشكل قاطع من هذه التأثيرات لأن المعلومات التي يذكرها صاعد في كتابه غير كافية.

مؤلفاته :

من الكتب التي يذكر صاعد بأنه ألفها، كتاب في علم الرصد وقد ذكره صاعد مرارًا دون الإشارة إلى عنوان الكتاب وقد يكون الكتاب اختصارًا لما ذكره غيره من المؤلفين في علم النجوم(١٥). وله كتاب ثانٍ في جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم، أما الكتاب الثالث فإنه تحدث فيه عن ديانات الشعوب المختلفة، ولعله

شبيه بكتاب ابن حزم في الموضوع نفسه. ويذكر الزركلي بأن صاعدًا كتب تاريخًا عن الأندلس وتاريخًا عن الإسلام دون إعطاء أسماء أو عناوين لها(١٦).

وأما أشهر كتبه فهو كتاب طبقات الأمم، وقد كتبه بعد أن تجاوز الأربعين من عمره، ولاشك أنه قد استفاد من وجوده مع رجال العلم والفكر في طليطلة وخارجها. كما أن عمله قاضيًا أتاح له فرصة مشاهدة العديد من النماذج الاجتماعية والعرقية والتعرف إلى مميزاتهم الذهنية والجسيمة.

تقسيمه لأمم العالم :

يعد صاعد المناخ باردًا كان أم ساخنًا أم معتدلاً هو العامل المؤثر مباشرة على استعدادات الأمم ومؤهلاتها الذهنية والجسمية. لذلك نراه يقسم أمم العالم إلى نوعين هما: نوع الأمم العالمة ونوع الأمم غير العالمة. وينطلق صاعد في هذا التقسيم من نظرية المناخات فهو يعتمد على المتغير المناخي والجغرافي.

أمم العالم :

قال صاعد: «وزعم من عنى بأخبار الأمم، وبحث في سير الأجيال. وفحص عن طبقات القرون، أن الناس كانوا في سالف الدهور، وقبل تشعب القبائل وافتراق اللغات سبع أمم: الفرس والكلدان واليونان والترك والهنود والصينيون»(١٧).

وبعد أن صنّف صاعد هذه الأمم السبع وعدّد لنا الأماكن الجغرافية التي تسكنها. وتحدث عن لغات هذه الأمم وملوكهم واصل صاعد قائلا: «فهذه الأمم السبع كانت محيطة بجميع البشر وكانوا جميعًا صابئة يعبدون الأصنام تمثيلاً بالجواهر العلوية والأشخاص الفلكية من الكواكب السبعة وغيرها. ثم افترقت هذه الأمم السبع وتشعبت لغاتهم وتباينت أديانهم»(١٨).

الأمم التي اهتمت بالعلم :

قال صاعد : وجدنا هذه الأمم على كثرة فرقهم وتخالف مذاهبهم طبقتين، فطبقة عنيت بالعلم فظهرت منها ضروب العلوم وصدرت عنها فنون المعارف. وهذه الطبقة ثماني أمم: الهند والفرس والكلدانيون واليونانيون والروم وأهل مصر والعرب والعبرانيون. وأما الطبقة التي لم تعن بالعلم عناية يستحق منها اسمه وتعد بعدما ذكرنا، كالصين، ويأجوج ومأجوج، والترك وبرطاس والسرير. والخزر، وجيلان، وكشك، واللان، والصقالبة، والبلقر، والروس، والبرجان، والبرابرة وأصناف السودان من الحبشة والنوبة والزنج، وغانة، وغيرهم(١٩). وأنبه هذه الأمم التي لم تهتم بالعلوم في نظر صاعد، الصين والأتراك. فأما الصين فأكثر الأمم عددًا، وأفخمها مملكة، وأوسعها دارًا، وأما حظهم من المعرفة التي برزوا فيها سائر الأمم، اتقان الصنائع العلمية وإحكام المهن التصويرية. وأما الترك ففضيلتهم التي برعوا فيها وأحرزوا فضلها معاناة الحروب ومعالجة آلاتها، فهم أحذق الناس بالفروسية والثقافة وأبعدهم بالطعن والضرب والرماية(٢٠).

وباختصار فإن صاعد الأندلس يقول لنا: إن أمة الصين أتقنت الحرف والصنائع المهنية وأن أمة الترك أتقنت الفنون العسكرية. وصاعد في ملاحظته حول هاتين الأمتين يقترب كثيرًا من وضع يده على عنصرمهم غير المناخ هو العنصر التاريخي، الذي يلعب دورًا مهما ومميزًا في بلورة الحضارات عند الشعوب أو في عدم بلورتها.

لقد لمس صاعد الأندلس أهمية العامل التاريخي، لكنه لم يتعمق كثيرًا في تحليل هذا العامل، ولم يكن مدركًا تمامًا لدوره الأساسي في حياة الشعوب وتطور حضارتها. ولعل الخطأ المنهجي الذي وقع فيه صاعد هو عدم استمرارية البحث، ومواصلته في مسألة هاتين الأمتين (التركية والصينية) اللتين خرجتا على القاعدة فوصفهما وسطًا بين القطبين الرئيسيين.

أهم أفكار صاعد الاجتماعية :

يعطي صاعد، وهو يقسم الأمم القديمة، عامل اللغة الصدارة في تكوين الأمة، بينما يعطي المملكة الواحدة والأرض الواحدة أهمية ثانوية خاصة في مرحلة تاريخية لاحقة. ويربط صاعد بين تنوع الحضارات وبين تطور اللغات، فاللغة هي محور الأمة الرئيسي، وهنا نجد أن صاعد كان سبّاقًا في هذا التحليل. فاللغتان العربية والعبرية، وهما لغتان انبثقتا من الكلدانية، وتميزت كل منهما عن اللغة الأساسية التي انبثقتا منها، كما تميزت كل واحدة منهما عن الأخرى. فتشكلت حول كل منهما حضارة متميزة ذات خصائص خاصة بها. وكأن صاعد الأندلس يقول هنا: إنه لاتميّز حضاري إذًا بدون تميّز لغوي، فاللغة في رأيه هي البوتقة التي تنصهر فيها حضارة الأمة. ويعلق معتوق على ذلك قائلاً: إن هذه الملاحظة لصاعد تقرّبه جدًا من النظريات الألسنية المعاصرة.

فمحرك الحضارة عند أمة بما فيها من علوم ومعارف وفنون، هو اللغة لكن ديناميكية هذا العنصر المهم تظل مجهولة، وإلا فما الذي يجعل هذا المحرك يتحرك عند بعض الأمم فيجعلها تنطلق نحو بناء مستقبل مشرق؟ وما الذي يجعله عديم الحركة عند البعض الآخر تقف عنده ولاتكون لديها فرصة صنع التاريخ والمستقبل(٢١).

والجواب لهذه المسألة عند صاعد الأندلس هو المناخ. إن مفتاح تفسير هذه المعضلة عنده يكمن في الحياة الجغرافية والمناخية المناسبة والمعتدلة. فصاعد لايقف به فكره عند إبراز الملاحظة الأولى الخاصة باللغة في تميز أية حضارة من حضارات الأمم. ولكنه يستمر في بحثه عن سبب تحرك اللغة عند شعوب وعدم تحركها عند شعوب أخرى.

إن اللغة بوصفها عنصرًا ثقافيًا، موجودة عند جميع أمم العالم، ولكن تلقيحها الناجح عند صاعد يكون عن طريق المناخ الملائم والمعتدل. فالشرط الأول

ضروري وهو يتمثل في وجود لغة، لكنه ليس كافيًا وهذا ما يجعله يبحث عن سبب السبب فيصل إلى النتيجة التي تحدثنا عنها.

ولكن لماذا يشترط صاعد الانضمام إلى عضوية الأمم العالمة والنابهة أن يكون مناخ الأمة معتدلاً؟، وهنا يجيب صاعد على ذلك بقوله: إن المناخ المعتدل ينشط الأذهان ويفتح الإبداع عند أفراد الأمة. فلا يصيب الأفراد الكسل والتبلد والاسترخاء. فالأمم الثماني التي يذكرها في طبقات الأمم والتي تنتمي إلى أقاليم ذات مناخ معتدل، تتميز بسرعة البديهة وبالفكر والإبداع والابتكار، وهي تستخدم لغاتها لتعميق معارفها وعلومها، ثم تدونها بهذه اللغة الخاصة بها فتأتي معارفها العلمية ومعطياتها الفكرية والفنية مسبوكة في هذا الإطار المميز والخاص بها. ثم تكتسب هذه الأمة بعد فترة زمنية شرعية حضارية بين الأمم، ومكانًا بارزًا يقربها التاريخ ويحفظه لها.

إن اعتدال المناخ يعكس اعتدالاً في الطباع والذهنيات، ومثل هذا المناخ إن توفر يسمح لأفراد الأمة هذه أن يختاروا الموضوعات التي يريدون أن يفكروا فيها بهدوء دون أن يتعرضوا لضغوط معيشية أو مضايقات مناخية قاهرة ومزعجة، فتشتت أذهانهم وتربك أفكارهم وعطائهم الفكري والمعرفي. وبذلك يكون المناخ المعتدل عند صاعد هو مناخ الأمم النابهة والأمم العالمة، وهو الحافز المعرفي الأول. ومن خلال هذا المناخ المعتدل يظهر التفرغ لأمور العقل، ففي جوه تتبلور العلوم والمعارف، ويتجدد عطاء الفكر والإبداع الانساني. فالمعادلة النظرية التي يطرحها لنا صاعد بسيطة ومنطقية: الظروف المناسبة تولد عند الإنسان استعدادات جسدية وذهنية خاصة، وهذه بدورها ينتج عنها أفكار وابتكارات وإبداعات خاصة.

الأمم التي لم تهتم بالعلم :

وقد وصف صاعد هذه الأمم بعبارات نختار منها ما يلي: «وأما سائر هذه الطبقة التي لم تعن بالعلوم فهم أشبه منهم بالبهائم منهم بالناس، لأن من كان منهم موغلاً في بلاد الشمال مابين آخر الأقاليم السبعة التي هي نهاية المعمور في الشمال، فإفراط بعد الشمس عن مسامتة رءوسهم برد هواءهم وكثف جوهم فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاقهم فجة، فعظمت أبدانهم، وابيضت ألوانهم، وانسدلت شعورهم، فعدموا بهذا دقة الإفهام وثقوب الخواطر، وغلب عليهم الجهل والبلادة.

ومن كان منهم ساكنا قريبًا من خط معدل النهار وخلفه إلى نهاية المعمور في الجنوب لطول مقاربة الشمس رءوسهم أسخن هواءهم وسخن جوهم. فصارت لذلك أمزجتهم حارة وأخلاقهم محترقة فاسودت ألوانهم وتفلفلت شعورهم، فعدموا بهذا رجاحة الأحلام، وثبوت البصائر، وغلب عليهم الطيش وفشا فيهم الجهل مثل من كان من السوادن ساكنًا بأقصى بلاد الحبشة والنوبة والزنج وغانة وغيرها»(٢٢).

كلما اقتربت أمة من خط الاستواء، أو اقتربت من القطب الشمالي كلما خضعت هذه الأمة أكثر للتأثيرات السلبية والناتجة عن وجود المناخين البارد والحار.

إذن عندما يعيش المرء في إطار مناخ بارد فإن أشعة الشمس منحنية جدًا فينسدل الشعر ويبهت لون البشرة ويطول الجسم بشكل غير عادي، فالأجسام العظيمة، تأتي لفقدان التوازن المناخي في بلدان الشمال، في رأي صاعد، إذن فقدان التوازن الطبيعي يؤدي إلى فقدان توازن المواصفات الجسدية، ومن ثم إلى فقدان التوازن في مجال المواصفات الذهنية والفكرية حيث يغلب الجهل والبلادة(٢٣).

فالمناخ البارد جدًا والحار جدًا كلاهما يؤدي إلى النتيجة نفسها. فمثلما برودة المناخ تؤدي إلى برودة الخاطر والبديهة، وإلى برودة في التفكير والإبداع.

كذلك المناخ الحار فإنه يؤدي إلى النتيجة نفسها فطول الأبدان (عند النوبة مثلاً) الناتج عن عدم توازن في عملية النمو الجسمي عندهم، يولد عاهة ترتبط، في رأي صاعد، بعدم توازن البنية ككل.

فهذه المواصفات الجسدية تؤدي إلى مواصفات ذهنية من القياس نفسه؛ فسكان الجنوب، مثل سكان الشمال يشتركون في الكسل والجهل والبلادة، كما أن طباعهم الحارة أو الباردة تعد معوقات إضافية في وجه تقدمهم الفكري وإبداعهم ذلك أن التطرف في التصرف لايزيد الذكاء بل يحجمه كما يقول القاضي صاعد.

منهج صاعد والنقد الموجه إليه :

١ – إن قسماً كبيراً من المعلومات التي يوردها صاعد الأندلس مستقاة من الكتب المتداولة في عصره. معلومات الكثير منها غير دقيق في غالب الأحيان كما تعد معلومات أولية ومنقولة في الغالب عن مسافرين قد لايتوخون الموضوعية بالضرورة بل هم يعتمدون على الانطباع الذاتي والتجربة الشخصية.

٢ – قد نستغرب في عصرنا الآن، لما يقوله صاعد حول كون الصينيين أمة لم تعن بالعلوم ولا بالمعارف، كما نستغرب قوله كون الأفارقة أقرب منهم إلى البهائم منهم إلى البشر. إن معلومات صاعد هي معلومات عصره. فالثقافات غير منتشرة، والمواصلات صعبة للغاية. لم تظهر بعد علوم للآثار تنبش حضارات الإنسانية الأولى في أفريقيا أم الشعوب، ولم يظهر لنا أيضاً باحثون متخصصون ينقبون لنا عن مدى عظمة الحضارة الصينية.

٣ – إن خطأ صاعد لايمكن في هذه المعلومات التي وصلت إليه، أو سمع عنها، خطأه في أنه عدَّ الأمتين التركية والصينية لم تعنيا بالعلوم، وكذلك أهل الحبشة وغانا والسودان، دون التمييز في الفارق المناخي الذي يعدَّه

هو نفسه مؤشر التحضر والتعلم. فهو لم يحاول الاستمرار في بحث تخلف الأمتين التركية والصينية بالرغم من توفر عنصر المناخ المعتدل لديهما. لم يحاول صاعد أن يتعمق في أهمية العنصر التاريخي، ولم يدرك دوره الأساسي في تجربة الأمم.

٤ - تميز صاعد الأندلس بالموضوعية والتي نادرًا ما نراها في العصر الذي عاش فيه وتظل الموضوعية حتي يومنا هذا حجر الزاوية في العلوم الاجتماعية والإنسانية، وبدون الالتزام بها نصًا وروحًا من قبل الباحثين في هذه العلوم تظل فرصة مصداقيتها وعلميتها ضعيفة جدًا. هذه الموضوعية جعلته يرى الأمور كما هي عليه، ويطلق تصوراته وأحكامه دون الاكتراث لأية حسابات عرقية أو دينية، كما أن هذه الموضوعية جعلته من جهة أخرى، يضع الأمم المسلمة وغير المسلمة في سلة واحدة.

٥ - يجمع صاعد في سلة واحدة الأوربيين البيض، والأفارقة السود، عادًا الأمتين من الأمم المتخلفة، فهي أمم تخلفت عن الإبداع والمعرفة والابتكار، بسبب معطيات هذه الأمم غير الملائمة. فصاعد يجمع في تحليله، الأتراك (مسلمين) والبلغاريين (مسيحيين) والنوبة في السودان (عباد أصنام) ويجعل من المناخ غير الملائم القاسم المشترك للمعارف والعلوم وازدهارهما عند هذه الأمم جميعها، دون أن يلعب العنصر الديني أي دور في التمييز بين هذه الأمم.

٦ - لاينحاز صاعد الأندلس إلى أي تعصب عنصري أو ديني. فهو يدرس ظاهرة طبقات الأمم انطلاقًا من مؤشر العلوم والمعارف، ومن فرضية المناخ الملائم، أو المناخ المعوق. صاعد هنا يلتزم في دراسته بالموضوعية لأنه يساوي بين الأجناس والأديان المختلفة. فقد كان صاعد موضوعيًا بقدر ما كانت تسمح به معارف عصره وثقافة زمانه.

٧ – الشيء الجديد بالتنويه هنا أن يقوم قاضٍ عربي من الأندلس، وفي القرن الحادي عشر، بإعادة اختلاف المستويات المعرفية عند الأمم لا إلى أسباب مثالية أو انطباعية أو أخلاقية، وإنما إلى أسباب مادية، مناخية وجغرافية. ومما يدعو إلى الإعجاب أن يربط هذا العالم العربي الفذ في عصر مبكر جدًا بين النتاج المعرفي بين الحيثيات المادية (المناخ) والاجتماعية (الذهنيات والطباع الاجتماعية).

٨ – سبق مفكرنا العربي المسلم صاعد الأندلس مونتسكير الفرنسي صاحب (روح القوانين) في نظريته حول المناخ والذي جعل منه محور تفسيراته الاجتماعية، كما سبق العالم الأمريكي بترم سوروكن والذي عالج هذا الموضوع في سياق حديثه عن الاندماج الثقافي والذي يسببه العنصر الجغرافي.

* * * * *

الهوامش

١ – Harry E. Barnes, An Introduction to the History Of Socialogy (Chicago: University of Chicago press, 1948) P.6.

٢ – حسن شحاته سعفان: تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٦٦، ص:١٥.

٣ – أرنست رينان (١٨١٣ – ١٨٩٢) مستشرق فرنسي، رحل إلى الشرق، ونزل لبنان، وعني بالعقائد الإسلامية، وله عدة مؤلفات: منها ابن رشد والرشدية (قال: لولا ابن رشد لما فهمت فلسفة أرسطو) وله تاريخ اللغات السامية في جزأين وتاريخ الأديان. كرستيان لاسن، مستشرق ألماني توفي سنة ١٨٧٦ ومن المشاركين في حملة رينان الشعواء ضد الجنس السامي كله.

ليون جوتيه، مستشرق فرنسي، عيّن أستاذا للفلسفة الإسلامية في الجزائر، آثاره حي بن يقظان لابن طفيل، وترجم لابن رشد الكشف في مناهج الأدلة. ونشر الدرة الفاخرة للإمام الغزالي وله أيضًا المدخل إلى دراسة الفلسفة الإسلامية. راجع نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م الجزء الثاني.

٤ – الجنس الآرى هو أصل الأمم الأوربية وبعض الأمم الآسيوية ممن ترجع لغاتهم إلى السنسكريتية أو غيرها. راجع توفيق الطويل. العرب والعلم في عصر الإسلام الذهبي، دار النهضة العربية، بدون تاريخ، ص: ٢٢.

٥ – تنمان، مستشرق ألماني توفى سنة ١٨١٩. له كتاب المختصر في تاريخ الفلسفة، نشر بالألمانية أولا سنة ١٨١٢ ونقله إلى الفرنسية الفيلسوف الفرنسي كوزان المتوفى سنة ١٨٤٧، راجع مصطفى عبدالرازق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٩٦٦، ص: ٤.

٦ – ف. بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦، ص: ٢٥.

٧ – كارللو نللينو (١٨٧٣ – ١٩٣٨) تعلم العربية في جامعة تورينو، وتنقل في التدريس وشغل كرسي الدراسات الإسلامية في جامعة روما، وزار مصر مرات كأستاذ زائر في الفلك والأدب العربي. من مؤلفاته، تكوين القبائل العربية قبل الإسلام وتاريخ علم الفلك عند العرب في العصور الوسطى، ونشر كتاب البيان لابن رشد وغير ذلك.

٨ – ألدوميللي، مستشرق إيطالي ومن مؤلفاته كيمياء البيروني، والعلم العربي وأثره في التطوير العلمي العالمي والعلم الإسلامي والرياضيات وغيرها. راجع حولهما نجيب العقيقي، المصدر السابق، الجزء الثاني.

٩ – جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، عيسي البابي الحلبي، القاهرة، ط٤، ١٩٦٤، ص: ٢٠ – ٢١.

١٠– الضبي بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧، ص: ٧٦.

١١– صاعد الأندلس، طبقات الأمم، تحقيق حياة أبوعلوان، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٥، ص: ١٨٤.

١٢– المصدر السابق، ص: ١٣٨.

١٣– المصدر السابق، ص: ٢٣٩ –٢٤٠.

١٤–

١٥–

١٦– الزركلي، الإعلام، بيروت، ط٣، ١٩٦٩، ٣ : ٢٧١.

١٧– طبقات الأمم، ص: ٣٣.

١٨- المصدر نفسه، ص: ٣٩.

١٩- المصدر نفسه، ص: ٤٠.

٢٠- نفسه.

٢١- فردريك معتوق، تطور الفكر السوسيولوجي العربي، جروس بروس، بيروت، بدون تاريخ، ص: ٢١.

٢٢- طبقات الأمم، مرجع سابق، ص: ٤٠.

٢٣- معتوق، ص: ٢٤.

* * * * *